هجرة المثقفين عن الحرب

٤

بقلم : هادي دانيال

لبنان ، ما كان شعبا يعاني من احتدام تناقضات طبقية ووطنية حادة برأي متفعنا . كان مجرد مطبعة كبيرة هامة ومركزية .. منها تخرج « الاسماء » الى اصقاع الوطن العربي والعالم مطهمة بهالات دعائية اعتدنا ان تكون زائفة . لعمال المطبعة وجهازها الاداري همومهم ايضا ايها السادة ، والاتها صدئت وتحتاج تغييرا جذريا . انا مدرك لماذا انتم ضد تغيير ما ، قد يطرأ في هذه المطبعة الفاسدة . واثق ان تحويلها الى مطبعة أصيلة يشرف عليها اصحابها الحقيقيون ، عمالها الكادحون ، سيفضح فساد بضائعكم المضادة لهؤلاء العمال ، ولزملائهم في اقطار الوطن العربي والعالم . ولذلك فضلتم ان تخسروا هذه المطبعة كليا ، لانها في طريق الصيرورة الى زنزانة اخرى ، كما هي حال بقية اقطارنا العربية .. لن يكترث عمالنا بكم ، فهم باقون عمالا ، بينما تنقلبون جراء بين مكاتب الانظمة وشرائحها العليا ، ان معاهد تخريجكم جراء هي الاتحادات التي انشأتها انظمتكم لتوزع عليكم الادوار في اضطهاد وتضليل شعبنا العربي في كل قطر وتحت راية كل نظام برجوازي كومبرادوري . ان المطبعة المركزية ، الملحقة ببحر جميل وابنية شاهقة وفنادق فخمة وسيارات متنوعة واضواء خلابة ونساء سهلات ، يجري في شرايينها - وهذا ما تتناسونه دائما - شعب كادح ، عمال يجوعون اياما في الاسبوع ، ضحايا لدجلكم المجرم ، اطفال ينامون وفي فمهم علقم ، هذا الدم الاسود الذي تمصون من كرياته ثمن بضائعكم التافهة ، أعياه الاضطهاد فانفجر ، وتدمرت المطبعة .. ما شعرتم بالجثث التي انتثرت في الشوارع بين جاجم السيارات ، ولا بجداول الدم التي ترفد البحر هازة اعماقه ، ولا بالاطفال يذبلون شموعا تطفئها رياح الحرب .. جميعكم هجرتم الفنادق التي أضحت ركاما أسود، وتوزعتم بين مقاهي العواصم ، تقذفون الانفجار بالشتائم مع جوقة اصحاب المطابع والفنادق ورؤوس الاموال الضخمة. ان متابعتكم « لاحداث لبنان الدامية في الصحف العربية واللبنانية بقلب حزين وعين دامعة (١) ، يعكس اسفكم على الارباح التي كانت تدرها عليكم تلك المطبعة التعيسة ! ، وتلومون السلطة الرسمية التي كانت عاجزة عن حماية مصالحكم لانها « سمحت » للاحزاب بان تتسلح ! . هذا موقف الناطق الروحي باسم الكومبرادور المصري . ان كثيرين سيغطبون جباههم ، لان الناطق في رأيهم « خرفان » ولا يجب الاشارة الى رأيه . ولو استعرضنا آراء مثقفي الانظمة الكومبرادورية في الوطن العربي لما تجاوز المستوى الخرفان الذي يجسده صاحبنا.

ان الانظمة الفاشية اعتمدت (الخرفانين) ثقافيا وهي من الدهاء بحيث تستغل اعتياد جماهيرنا على هؤلاء ، كونهم كتابا وفنانين « لمعوا » في مرحلة التحرر الوطني التي قادت لواءها البرجوازية الصغيرة .. ، وتحجب بالمقابل وبجميع الوسائل الاعلامية والقمعية البوليسية والقانونية المثقفين الثوريين عن الجماهير امعانا في السيطرة على ثقافتها التاريخية ! . لقد سيطرت البرجوازية الكومبرادورية على انظمة اقطار الوطن العربي ، ودخلت مرحلة الاغتسال من الوطنية بالعمالة المطلقة للامبريالية ، وهكذا يفرز الوضع السياسي والطبقي في الوطن العربي حالة ثقافية متغيرة تندمج فيها التناقضات الطبقية مع التناقضات الوطنية مما يكون حركة ثقافية مستقلة عن دوائر الحكومات الرسمية .. لهذه الحركة افرزت البرجوازيات الحاكمة عناصرا ثقافية مهمتها التصدي لتيار ثقافي ديمقراطي مضاد للثقافة الطبقية السائدة ، عيبه انه لم ينضج ، ويحمل رواسبا قاتلة كثيرا ما شدت بعض عناصره الى مستنقعات الخفافيش العمياء . والحرب الاهلية في لبنان كانت مقياسا زئبقيا وامتحانا قاسيا ، كشف الهيكل الاصلي للحركة الثقافية العربية المستقلة . وكما لاحظنا ، فان المثقفين اللبنانيين والفلسطينيين كانوا في حالة ارتباك مزعجة لدرجة ان محاولات معقولة ،استمرت في بدء الحرب ، ثم « كوعت » صوب التيار الرسمي ، هذه الحالة يوازيها حالة استثمار دنيء للحرب شكلها المثقفون العرب في لبنان قبل هجرتهم عن الحرب ! .

لقد قدمت الحركة الثقافية المستقلة عدة شهداء (هاني جوهرية ، الياس الجوهري ، طلال رحمه ، براهيم عامر ، ابراهيم مرزوق) ، بينما كان قسم منها يبرر فراره بالخوف على ولده الفتى من الانضمام الى مقاتلي المقاومة والحركة الوطنية او خشية غضب الزوجة المصون او بمهمات حزبية ، او مقتا للموت المجاني ، وقد أرجع اديب عربي كان يقيم في بيروت اصل الشعبين الفلسطيني واللبناني الى «الكلب» (٢) في عمل مسرحي استوحاه من الحرب الاهلية ونشره في عاصمة المؤامرة (٣) .

لقد ساهم المثقفون التقدميون السويديون في حملة التضامن مع الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة في استوكهولم ، فعلى سبيل المثال اقيم منذ وقت معرض للوحات المرسومة قدمه الفنانون لصالح حمله تبرع في استوكهولم . ان مساهمات المثقفين التقدميين في السويد تدين ليس الاطراف المتآمرة فقط ، بل وتدين اساسا المثقفين العرب الذين كانوا يؤسسون لمافيا ثقافية ويخططون لاستغلال الوضع الحرج الذي تمر به المقاومة والحركة الوطنية اللبنانية والسطو على مبالغ باهظة مقابل كتاباتهم السطحية واعمالهم الفنية الرديئة .

هذه مرحلة الانهيارات السياسية ، وسقوط الايديوجيات الخاطئة . وهي ايضا مرحلة انهيار البناء الثقافي العربي بعد ان احرقت الحرب اسسه الزائفة . ان المجال لن يفسح لنا تعداد الاسماء المتواطئة مع المؤامرة ، ولكن يكفي ان نؤكد ان الصمت المريب حيال الحرب الاهلية كان يعني الموافقة الضمنية على ذبح المقاومة وقمع الحركة الوطنية اللبنانية . ان الحياد المتواطىء الذي رفعت لواءه الحركة الثقافية المستقلة باغلبيتها يدفعنا لتفسير ما نعنيه بالحركة هذه .

٢ - **الحركة الثقافية المستقلة** : انها مجموع المثقفين المستقلين سياسيا عن احزاب الانظمة الرسمية وملحقاتها ، وهذا يعني استقلاليتها السياسية الفردية ، او انتماءها الى احزاب المعارضة اليسارية ، أو انخراطها في مجموعات التائبين سياسيا أو المنظرين دكاكينيا . ونظره تأكدية تثبت ان هذه الحركة منقسمة الى ثلاث فئات :

أ - ضحايا الانهيارات السياسية التاريخية : معظمهم يعانون انفصاما واضحة في شخصياتهم بين ماض يذخر بالمواقف الثورية المضيئة، وحاضر يعج بالمواقف الانتهازية . التي يبررونها باللعب على حبال تناقضات الانظمة الفاشية التي سرعان ما تنقطع بهم ليتردوا الى مهاوي الارتزاق والجاسوسية كردة فعل على هزيمتهم امام برجوازيات اقطارهم وهذه الفئة ترى وقت الثورة لا زال قصيا ، والحرب زلزال سياسي العاقل من ينجو منه قبل حدوثه . زلزال لا تحكمه قوانين ، لان هذه الامة العربية لم تنضج بعد ، وكي تنضج تحتاج الى زلازل مدمرة تكشط عنها الغبن العام السميك الذي يطفو على حركتها التاريخية . ان مثل هذه الترهات التبريرية لا تعدو كونها صدى انهيارات متوقعة تقفو الحرب الاهلية اللبنانية على الصعيدين السياسي والثقافي ! .

ب - « الصوفيون الثوريون » : وهم مجموعة من المثقفين المفلسين سياسيا ، الداعين الى تغيير العالم بالشعر الصوفي المرتكز اساسا على الفاظ محي الدين بن عربي وتهويماته الميتافيزيقية ، وهم يتقلبون عادة بين اقصى اليمين فاقصى اليسار ، يروجون لكل مغامرة يسارية ثقافية وسياسية ، يدعون الماركسية واللينينية والماوية والتروتسكية والجيفارية والقرمطية والناصرية في آن واحد ، وفي دوائر الفعل ومنعطفات الخطر ، تهر عن عوراتهم اوراق التين ، ليظهروا على حقيقتهم الهزيلة المجبولة من الانتهازية والارتزاق والادعاء الاجوف ، فالذي يريد تغيير العالم بالكلمات الميتافيزيقية لا يمكن ان يقف مع شعب يقاتل ويرتبط مصيره بالبندقية دافعا عن جسده خناجر المؤامرة !

ج - **انوية الثقافة الثورية** : الزمن الاسود ، الجنون البشع ، المرارة في السنابل والثمار ، في صدف البحر وثمار النخيل . في هذا الزمن : الرماد تحت الجمر ، لا تعصف الريح وتعمي أبصار الانظمة المفتوحة على الموت ، المقهقة للمقاصل والزنازين ، انما « زهرة الرماد » تنمو لهبا ، فلنتعرف على هذا اللهب . المبدعون ضمير الامة وصانعو حياتها الروحية ، وكون الوضع السياسي والاقتصادي ، ، وبالتالي الثقافي الرسمي في يد البرجوازيات العربية ، التي تجد من مصلحتها الحفاظ على الثقافة الطبقية التي تسود بالضرورة المجتمع الطبقي ، يغدو البحث عن ثقافة ثورية جماهيرية شاقا ، فكل ما هو ثوري في حالة انحسار عام . لذا ينبغي رصد الانوية الثقافية الثورية في ضوء الحرب الاهلية اللبنانية التي كانت امتحانا صعبا لاصالة المثقفين والمبدعين العرب. لقد كان بعضهم فراشات حمراء ، تحوم حول النار ، وحين يدنو اللهب من اجنحتها تفر مذعورة خشية الاحتراق، وبعضهم كان صامدا في عاصمة المؤامرة نفسها « دمشق » ، الا ان افتقاده الاسلحة النظرية الثورية كان يدفعه نحو مواقع مظلمة، وآخرون حاولوا الا ان المحاولات كلها كانت ناقصة ، ومع ذلك تبقى مؤشرات لمهمات المرحلة المقبلة!

● ●

بعد دمار المطبعة الليبرالية ، واحتراق حلمي بأن تتحول الى مطبعة للقوى الديمقراطية والثورية . وبعد ان رضخت القيادات البرجوازية الصغيرة الاصلاحية في الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة ، وشعبنا الذي قدم الضحايا يعض على جراحه ، محاطا بهزائم قادته المساومين. سأحمل حقيبتي المضرجة وأهاجر في الوقت الذي تؤوبون فيه ، ورغم العلقم الذي يمرمر فمي ، انام وفي حنجرتي حلاوة المستقبل . لا اهاجر عن الوطن ، بل اهاجر في اعماقه ، بين خلاياه ، في قطار من اللهب ، يخلف وراء عجلاته الازهار ويشعل الحرائق في حقول الشوك،ومفازات الرمل ، وابار النفط ..

لن اهاجر عن الوطن ،

بل ساهاجر في جسده ، كالدم في الشرايين !

هوامش :

(١) درس جديد من اجل لبنان . بقلم نجيب محفوظ ، جريدة الشعب اللبنانية ١٥ تشرين الثاني ١٩٧٦

(٢) ملحق الثورة الثقافي يصدر في دمشق كل خميس ١٩٧٦/٣/٢٥ « الانسان اصله كلب » !

(٣) البيان الذي وقعه حوالي اربعين مثقفا سوريا ، والذي يدعو لرفع الخنجر عن عنق المقاومة والحركة الوطنية ، كان وراءه النظام السوري نفسه باعتراف الدكتور صابر فلحوط ، وكان بمثابة محاولة للتنفيس عن النقمة في الداخل والظهور بمظهر المؤيد للمقاومة والحركة الوطنية اللبنانية . ومن هنا تجاهل البيان الدور السوري المحوري والرئيسي في ذبح المقاومة والحركة الوطنية !

كما كان تلبية لرغبة بعض الادباء والمثقفين الوطنيين في الوقت نفسه !.

من نتاجات الرفاق

أنا تائه في ليل صحراء موحشة

انا عمري احزان
وليلي انتظار
ودموعي آلام تسوي ..
تنزف دما في قبر هذا الظلام ..
والسنين التائه حبلت بأحزاني
ما أنا ؟؟
ما انا ان قتلت ؟!
ما انا ان اغرقتني الدموع ؟؟؟
ما انا ان رأت عيناي هذا السراب ؟
والشمس تنتحر على اسنه الليل ..

★ ★ ★

فمن انا ؟؟ وتراب وطني يئن من عواء الذئاب المتوحشة ...
فمن انا ؟؟ وشعبي جماجم مزروعة في حديقة السلطان
وعميل العملاء يا شعبي ..
يحرق حتى الدموع

★ ★ ★

انهم يقتلون الافق النائم في احضان الشمس
انهم يطفون البسمة الراقدة على الشفاه البريئة،
لا .. لا .. سنضيء الليل بالدماء
لا .. لا .. سنغرس في الارض ورودا حمراء ..
ونحطم القضبان .. ونسحق الضباب
ونهزم جيوش الظلام ..
وسنغرسين يا دمار العشق الثوري
في الارض فجرا للحياة ..
وسنقهرين يا شمس الصحراء ..
اخر معقل للطغاة .

الرفيق / عمر كامل - اسبانيا .
٤-٨-٧٦ .

لا مساومة .. بل مقاومة

ايها المتاجرون بلحم شعبي
شعبي ليس قطيعا من الغنم
شعبي كتلة من حب وهتاف واحساس والم

★ ★ ★

لسنا يا سادة بضاعة رخيصة
ولا كأسا تتناولونه في المناسبات
ولا حبرا لتوقيع المعاهدات
نحن الجسر الذي يعبر الى فلسطين
ولا يرتضي غير فلسطين بديلا
نحن الجرح الذي ينزف من سنين
ودواؤه البندقية والسواعد السمراء الجميلة
نحن الدرب والضمير
نحن القضية والمصير
ودوننا انتم لا شيء

★ ★ ★

في وصية كل شهيد ثورة حتى التحرير
في عين كل طفل بلاد تنادي
في جرح كل ام الغام من الغضب تتناثر
في وجه كل شاب وشيخ تحد شامخ وعزة
لا تنضب ....
شهداؤنا عاهدوا
وانتم عاهدتم
والشعب كله عاهد
لا مساومة بل مقاومة
حتى اخر طفل من فلسطين
لا خضوع ولا ركوع
حتى لو رأينا الجبال تخضع وتلين
لا سلام ولا استسلام
حتى لو اكتسح الارض كل الفاشيين والحاقدين
ارادتنا اقوى يا سادة ...

مصطفى الشريف